المصطلح الصّوتي في كتاب سيبويه

د.رقيق كمال - الجزائر

إنّ الحديث عن المصطلح الصّوتي عند سيبويه – كيف نشأ وكيف تطور – يدعو بالضرورة إلى الحديث عن الجهود الصّوتية التي سبقت عصره، بحيث يجب الإشارة إليها؛ لأنها كانت بمثابة النّواة الأولى التي أسست للدرس الصوتي العربي، خاصة جهود الخليل الذي كان سبّاقاً لتأصيل العديد من المصطلحات الصوتية، خاصة في مؤلفه معجم (العين) والبحث الصّوتي الذي أورده في مقدمته، بعدها تبلور الفكر اللّغوي والصّوتي، خاصّة مع سيبويه؛ مما أدى إلى إنتاج وتوليد مصطلحات صوتية، اعتمدها في كتابه في باب الإدغام، فسيبويه أحدث تطوراً في مناهج دراسة اللغة ووصفها، كان من نتاجاته إفراز العديد من المصطلحات اللّغوية الصّوتية العربية الأصيلة بطرق علمية وموضوعية. هذا ما سنتطرق إليه في هذا البحث، حيث اعتمدت على مصطلحات الدراسة الفونيتيكية، من خلال مصطلحات جهاز النّطق – مصطلحات المخارج والصفات.

المصطلحات الدّالة على أعضاء جهاز النطق عند سيبويه:

عرف العرب القدامى أكثر أعضاء النطق هذه، وأطلقوا عليها أسماء ذات دقة كافية، بيد أن العرب القدامى لم يكونوا يعرفون بعض تفصيلات هذا الجهاز الذي ركّبه الله- تعالى- بنظام دقيق، فقد غفلوا عن بعض أجزائه في إصدار الأصوات، والحنجرة التي تعد غرفة مجهزة بالأدوات اللّازمة لإصدار الصوت وتعد المصدر الرئيسي له، بحيث لم يحدد القدماء ما بداخلها من الأوتار الصوتية ودورها في إنتاج الأصوات، بحيث لم يورد لنا الخليل أو سيبويه أو المبرد[1]، أو ابن جني أو ابن سينا ولا من تبعهم تعريفاً، أو مصطلحاً للجهاز الصوتي، كلّا متكاملاً، ولم يهتموا بالجهاز الصوتي من حيث هو جهاز له أهمية في العملية الصّوتية، بل جاء الحديث عن جهاز النطق أثناء دراستهم للمخارج أو عند دراسة صفات الحروف، ولذلك كان الحديث عن هذا الجهاز عضواً عضواً، كل واحد مستقل عن الآخر، وكأن تلك الأعضاء مستقلة تماماً عن بعضها البعض، بحيث كانت تطفو على تلك الدراسة الملاحظة السطحية. ولأئمة اللغة الأقدمين عذرهم في ذلك بلا ريب، حيث يقول حامد هلال بهذا الشأن: «...لم يكن عندهم علم التشريح الذي يوقفهم على حقيقة هذا الجهاز وتحليل أجزائه وخواصه الوظيفية»[2].

وبعد تقدم علم التشريح، وقف اللّغويون على الكثير من أسرار الجهاز الصوتي ومكوناته الدقيقة. هذا ما سنراه عندما نتطرق للجهاز الصوتي عند المحدثين.

إنّ حديث سيبويه عن أعضاء النطق، كان من خلال حديثه عن مخارج الحروف أيضاً أسوة بأستاذه الخليل، لكنه أضاف تقسيماً جديداً لأعضاء النطق، ومسميات ومصطلحات جديدة، خلافاً لما فعله أستاذه الفراهيدي. هذا ما سأوضحه فيما يأتي:

١- الحلق: لقد امتاز هذا المصطلح بعدم الدقة والشمولية، فقد قصد به سيبويه منطقة أوسع من الفم، إذ قسمه إلى ثلاثة أقسام وهي:

- أقصى الحلق ومنه مخرج (الهمزة، الهاء، الألف)[٣] والمقصود به الحنجرة عند المحدثين.
- وسط الحلق ومنه مخرج (العين، والحاء)[٤] المقصود به اللهاة عند المحدثين.
- أدنى الحلق ومنه مخرج (الغين، والخاء).

ويترتب على هذا التقسيم أنه جعل للهمزة والألف مخرجاً، في حين أنّ الخليل جعلهما هوائيين، لا مخرج لهما.

٢- اللسان: وقسّمه أيضاً إلى ثلاثة أقسام، وهي أقصى اللسان وأوسطه وطرفه، حيث يقول سيبويه في هذا الشأن: «ومن أقصى اللسان وما فوق من الحنك الأعلى مخرج القاف، ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً، ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف، ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء، ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضّاد، ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا مخرج النون، ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً؛ لانحرافه إلى اللام مخرج الرّاء...»[٥]. يظهر لنا من خلال حديث سيبويه عن اللسان أنه ذكر مصطلحات أخرى لأعضاء النطق، دون أن يعرّفها وهي (الحنك، ووسط الحنك، والحنك الأعلى) إضافة إلى تقسيمه للّسان إلى: أقصى اللسان، أسفل اللسان، وسط اللسان، حافة اللسان، منتهى طرف اللسان، ظهر اللسان، طرف اللسان[٦].

٣- الأسنان: تحدّث عنها سيبويه من خلال حديثه عن مخارج الحروف، بحيث يقول في هذا الشأن: «ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء، ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصّاد، وممّا بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذّال والثّاء»[٧]. والملاحظ أنّ سيبويه قد عدّ الأسنان عضواً يشترك في العملية الصّوتية وقسمها إلى: أصول الثّنايا، فويق الثنايا، أطراف الثنايا، الأضراس فسماها بالأصوات الأسنانية، وهي الأصوات التي تُسهم في إصدارها الأسنان، فوصفت بعدّة مصطلحات ومسميات، أهمها مصطلح (الأصوات النّطعية)، مصطلح (الأصوات الصّفيرية)، مصطلح (الأصوات اللّثوية).

٤- الشفة: قسمها سيبويه إلى قسمين هما:

أ- باطن الشفة السفلى. ب - الشفتان.

يقول في هذا الشأن: «ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء، ومما بين الشفتين مخرج الباء، والميم، والواو»[٨]. فقد تحدث سيبويه عن الشفة كعضو نطق، من خلال حديثه عن مخارج حروف العربية، فأخذت مصطلحان، الأول هو باطن الشفة السفلى، وهو مخرج للفاء، أمّا الثاني فهو مصطلح (الشفتان)، فقد عدّه مخرجاً للباء والميم والواو.

٥- الخيشوم: أشار سيبويه إلى (الخيشوم) الذي يقابل الفراغ الأنفي عند المحدثين، يقول أبو بشر فيه: «ومن الخياشيم مخرج النّون الخفيفة»[٩]. فمصطلح الخيشوم هو مصطلح أصيل، يمتاز بالدّقة العلمية، حيث نجده يقابل مصطلح الفراغ الأنفي[١٠] (La fosse nasale) عند المحدثين، عرف علماء العرب الكثير من أعضاء جهاز النطق وميّزوا دور كل منها في العملية الكلامية، وقد عزوا كل صوت إلى مخرجه، وما أصدق قول المستشرق الفرنسي (جان كانتينو): «وكان العرب يعرفون أكثر هذه الأعضاء، ويطلقون عليها أسماء ذات دقة كافية».

حيث نجد أن الخليل في مقدمة معجمه (العين) قد وظّف عدّة مصطلحات لغوية؛ للدّلالة على أعضاء

جهاز النطق، مثل: الحلق واللهاة ونطع الغار، واللسان وأسلته (طرفه) وعكدته (أصله)، وشجر الفم (مفرجه)، واللثة، والشفة وغيرها، كلها مسميات ومصطلحات صوتية أصلية، استخدمها العرب في المرحلة الجنينية لعلم الأصوات العربية. ونلفي سيبويه من خلال الكتاب- مثل ما ذكرنا سابقاً- أنه تطرق إلى أعضاء جهاز النطق، من خلال حديثه عن مخارج الحروف، كما عرّف أبو العباس المبرد (٢٨٥هـ) في كتابه (المقتضب) الحلق ومخارجه الثلاثة، حيث استعمل مصطلحاً جديداً، وهو الشدق ويعني به الفك، وذكر أيضاً اللسان وأقسامه والأسنان وقسمها إلى الثنايا العليا وأصول الثنايا والرباعيات، إضافة إلى الخيشوم[١٣].

وردد ابن دريد (٣٢١هـ) في مقدمة (جمهرته) وابن جني (٣٩٠هـ) في (سر صناعة الإعراب) مسميات سيبويه لأعضاء النطق، مما يدل على هيمنة منهجية ومصطلحات سيبويه على من عاصره وتبعه، إلا أننا نلتمس جديداً عند (ابن جني) في كتابه الذي أشرنا إليه، قد شبه الحلق بالناي، وهي إشارة ذكية، تدلّ على قوة الملاحظة وصحّة الفهم لاكتناه عمل جهاز النطق[١٤].

فقد أصبحت مصطلحات سيبويه في مجال علم الأصوات التي وظفها في مؤلفه (الكتاب) حقائق علمية في تلك المرحلة من تاريخ الدّرس اللساني عند العرب، هذا ما يؤكده جل العلماء التابعين وما ذكروه في مؤلفاتهم مثل مكي بن أبي طالب (٤٣٧هـ) في (الرعاية) والرضي الأستربادي (٦٨٤هـ) في (شرح الشافية)، وابن الجزري (٨٣٣هـ) في (النشر في القراءات العشر)، التي هي إعادة واجترار لما أتى به سيبويه من مسميات ومصطلحات في علم العربية، خاصة الصوتية منها[١٥].

وكذلك شرّاح (الكتاب)، أمثال أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ)، والرمّاني (ت ٣٣٤هـ) كانوا يكتفون في شرحهم بذكر ألفاظ سيبويه في عباراته ومصطلحاته كما هي[١٦]، إلا أننا نتبين الكثير من الجديد عند ابن سينا (٤٢٨هـ)، وليس في هذا غرابة؛ فقد كان طبيباً، له مؤلفات، أثنى عليها القدماء، شاهدة على براعته وفيض علمه، ومن أهم مؤلفاته (القانون في الطب)، الذي شرح فيه الحنجرة والغضاريف المؤلفة لها، وأيضا كتابه (رسالة أسباب حدوث الحروف)[١٧]، فإذا أضفنا كل هذه المعارف إلى ما تقدم ذكره منها، فإن من نافلة القول بيان أن علماء العربية عرفوا معظم أجهزة النطق، وإذا كان الرعيل الأول قد أشاروا إلى ما بان من أعضاء النطق فحسب، فإن التابعين كابن سينا قد أتموا ذاك النّقص بالإشارة إلى (إخوان الصّفا) في القرن الرّابع قد عرفوا دور الرئتين في إصدار الأصوات أثناء العلمية الكلامية[١٨]، وبهذا نكون قد ألممنا بجميع أعضاء جهاز النطق لدى القدماء، متأكدين أنّ سيبويه قد عرف معظم أعضاء جهاز النطق، وأنها لعبت دوراً أساسيًّا في تحديد المفاهيم والمسمّيات والمصطلحات للمباحث الصّوتية المختلفة، مثل المخارج، الصفات...إلخ.

لقد عني القدماء بدراسة الأصوات، ووصف مخارجها وصفاتها بما يتفق كثيراً مع نظريات علم الأصوات المعتمد على التجارب وآلات التسجيل الصّوتي في عصرنا الحاضر، وعلماؤنا القدامى على الرغم من عدم توافر تلك الأشياء لديهم، استطاعوا بإرهاف حسهم وخبرتهم الأصلية ومنطقهم المستقيم أن يكشفوا عن قوانين تلك الأصوات ويبرهنوا عليها بما بهر العلماء المحدثين وأثبت نبوغ وتفوق المتقدمين.

إنّ منهج علمائنا القدامى في دراستهم للأصوات العربية لا يضاهيه في العمق والدقة والاستقصاء جميع الدراسات التي يقوم بها اللغويون الآن بما يسمونه بـ (علم الأصوات اللغوية)؛ ولذلك كانوا أول الروّاد لعلم الأصوات اللغوية، وعلى كثير من ملاحظتهم بنيت المباحث الصّوتية في مخارج الحروف وصفاتها[١٩]، وتقسيم القدامى لمخارج الحروف وصفاتها مستمد من طبيعة العربية ومنهجها الأصيل، وعلى أساسه يمكن إدراك الأسرار اللغوية في أخصّ مميزاتها، إذ على هذا الأساس المنهجي تفهم أسرار الاشتقاق الكبير وملابساته وظروفه اللغوية وكذلك القيمة التعبيرية للحرف ومناسبته للأحداث المعبر به عنها، بما جعل للعربية منزلة سامية في الربط بين الألفاظ ودلالاتها[٢٠] والمنحى الذي نحا عليه القدامى، يكشف

تلك الأسرار، ويبرزها للعيان، ونحن بصدد الحديث عن مخارج الأصوات؛ لذا يجدر بنا أن نشير إلى المصطلحات والمسميات التي استعملوها في ذلك.

المصطلحات الدّالة على مخارج الأصوات وصفاتها:

أ – المصطلحات الدّالة على مخارج الحروف:

ينبع أقدم تصنيف للأصوات اللغوية عند اللغويين العرب من بحث قضية المخارج. والمقصود بمصطلح (المخرج) في الدراسة الصوتية تلك النقطة التي يحدث فيها اعتراض لمجرى الهواء في أثناء محاولة الخروج، وهي النقطة التي يصدر الصوت فيها، وعلى وفقها نصنف الأصوات اللغوية في الجهاز النطقي لدى الإنسان[٢٠].

وعُرف عن بعض الدراسيين العرب الأقدمين باسم (المجرى) أو (المحبس)، أما عند علماء الأصوات الغربيين فيطلق عليه موضع النطق (Point d'articulation)، ويعد مصطلح (المخرج) أكثر المصطلحات شيوعاً واستعمالاً في التراث اللغوي العربي وصفاً لنقطة النطق، ويرجع اصطلاح المخرج إلى الخليل بن أحمد في مقدمته لكتاب (العين). وقد أفاد منه سيبويه بعد ذلك، وأصبح هذا المصطلح متداولاً عند المؤلفين العرب بعد ذلك.

ولم يكن مصطلح (المخرج) وحده عند الخليل لوصف نقطة النطق، فقد أفرد الخليل عدة مصطلحات لذلك وهي: الحيز (والجمع أحياز)، والمبدأ (والجمع مبادئ) والمدرجة (والجمع مدارج)، إذ يقول: «في العربية تسعة وعشرون حرفاً صحاحاً، لها أحياز ومخارج وأربعة هوائية...»[٢١].

فأمّا الهمزة فسميت حرفاً هوائيًّا؛ لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، إنمّا هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز ينسب إليها إلا الجوف، فيقول أيضاً: «فالعين، والحاء، والهاء والغين حلقية؛ لأن مبدأها من الحلق، والقاف والكاف لهويتان؛ لأن مبدأهما من اللهاة...»[٢٢]. ويتضح لنا من هذا النص أن الخليل استعمل مصطلح (أحياز، مخارج، ومدارج، ومبدأ)؛ للدلالة على موضع صدور الصوت وخروجه، ولم يميز الواحد عن الآخر، ومن أكثر هذه المصطلحات عنده شيوعا مصطلح (الحيز).

- «الصاد والسين والزاي في حيز واحد».
- «الضاد والدال والتاء في حيز واحد».
- «الظاء والذال والثاء في حيز واحد»[٢٣].

إذ يظهر من هذا أن كلمة (حيز) كانت تعني عند الخليل النقطة التي يصدر فيها الصّوت، فقد أثبت البحث أنّ (الصاد والسين والزاي) تكوّن من هذا الجانب مجموعة الأصوات المعروفة باسم (أصوات الصفير)، (والطاء والدال والتاء) تكوّن مجموعة الأصوات المعروفة باسم (الأصوات الأسنانية)، (والظاء والذال والثاء) تكوّن مجموعة (الأصوات البين أسنانية)...إلخ، أمّا مصطلح (المبدأ) والجمع (مبادئ) فقد ورد عند الخليل أيضاً، حيث يقول: «الظاء والذال والثاء لثوية؛ لأن مبدأها من اللثة»[٢٤]، وهكذا اتضح أن مصطلح (مبدأ) مرادف عند الخليل لمصطلح (حيز)، وذكر الخليل أيضاً أن (الفاء والباء والميم) شفوية؛ لأن مبدأها من الشفة[٢٥]، والمقصود هنا بمصطلح (المبدأ) كون هذه الأصوات تصدر عن الشفتين، فهذه المجموعة تكوّن الأصوات الشفهية.

أمّا سيبويه فقد عرف هذه المصطلحات، واختار مصطلح (المخرج) والجمع (مخارج)، وفضّله على كل المصطلحات الأخرى، وتحولت بذلك كلمة (مخرج) إلى مصطلح شائع الاستخدام عند سيبويه، وعند من جاء من النّحويين، وارتضاه البحث الصّوتي الحديث، ولكن مصطلح (حيز) لم يرد عند سيبويه إلا

على نحو نادر، وبذلك كان دوره في بحث قضية المخارج مستأنساً بجهود الخليل بن أحمد، وله بهذا ظل في اختيار مصطلح (المخرج) وطرح باقي المصطلحات المرادفة له، فقد سار على درب سيبويه كل اللغويين الذين جاءوا بعده واستعملوا مصطلح (مخرج) في أغلب الأحيان، ولم يجدد لا سيبويه ولا من جاء بعده من اللّغويين هذا المصطلح، وبذلك لم يكن اختيار هذا المصطلح أي (المخرج) على أساس علمي، بل على حسب التقليد أو حسب المعنى الدلالي لكلمة (مخرج) في أحسن الأحوال، حيث نافست هذا المصطلح عدّة مصطلحات أخرى، من أبرزها مصطلح (المجرى)، ومصطلح (الموضع)، لكنها أسقطت وشاع مصطلح (المخرج) كما هو موضح في الشكل الآتي:

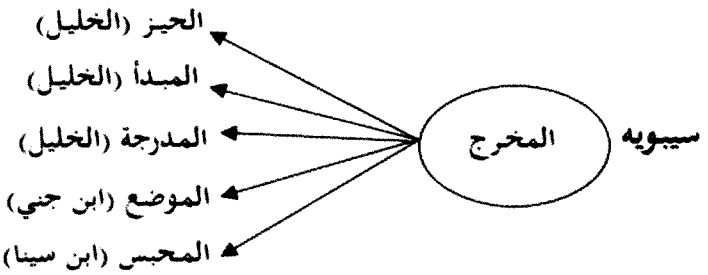

صنّف سيبويه الأصوات العربية في ستة عشر مخرجاً، حيث يقول: "ولحروف العربية ستة عشر مخرجاً: فللحلق منها ثلاثة، فأقصاها مخرجاً، الهمزة والهاء والألف..."[٢٦]، فوصف مخارج الحلق بعبارات موجزة، وقسم مخارج الحلق إلى أقصى الحلق، ووسط الحلق وأدنى الحلق، أمّا باقي المخارج فقد وصفها بعبارات طويلة، حاولت تحديد النقطة التي يتم فيها النطق من جانبين اثنين، هما اللسان والحنك الأعلى، فمثلاً في وصف نطق (القاف) ذكر سيبويه أنّ مخارجها أقصى اللسان وما فوق من الحنك الأعلى، حيث يقول: «ومن أقصى اللسان وما فوق الحنك الأعلى مخرج القاف...»[٢٧].

وبذلك تضمن هذا التّحديد وصفاً أكثر تفصيلاً من الدّرس الحديث عند علماء الأصوات، فهم يحددون المخرج بوصف أساسي واحد ودقيق، وكأنهم يجعلون الصّفة الأخرى أو باقي الصّفات تابعة[٢٨]. ومعنى هذا أن الأصوات التي تنطلق من اللسان من الجانب والحنك الأعلى واللّهاة من جانب، يمكن أن توصف نسبة إلى أقصى اللسان. وهذا هو العرف السّائد عند اللّغويين الغربيين، خاصّة الأمريكيين، ويمكن أن توصف باعتبار المنطقة العلوية المقابلة، فيقال هذا الصوت (Uvular) نسبة إلى (Uvula) وهي اللهاة أو حنكي (Post palatal) نسبة إلى المنطقة الأخيرة في الحنك الأعلى، ولكن سيبويه كان يصف المخرج من الجانبين معاً، فيصف المخرج باعتبار اللسان والحنك الأعلى معاً[٢٩]، إذ يمكننا إيضاح قضية الوصف المزدوج عند سيبويه بمقارنة وصفه لمخرج (الطاء والدال، والتاء) بوصف المخرج نفسه عند علماء الأصوات المحدثين، لقد وصف سيبويه مخرج (الطاء، والدال، والتاء) على النّحو التالي، حيث يقول: «ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء، والدال، والتاء»[٣٠]، وهنا نجد العنصرين، اللسان، وهو عضو متحرك وأصول الثنايا، أي: أصول الأسنان الأمامية. ويوصف هذا المخرج عند الكثير من اللغويين الأمريكيين بمصطلح (Apical) نسبة إلى (Apex) طرف اللسان، ويصفه لغويون أوروبيون بمصطلح (Dental) نسبة إلى (Dents)، أي: الأسنان، وهكذا نجد أنّ سيبويه يعتمد في وصف المخرج على صفتين معاً[٣١]، ويتفق وصف سيبويه مع الوصف الحديث اتفاقاً كاملاً في بعض المخارج، فقد وصف سيبويه مخرج (الفاء) على النّحو التالي: «من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا»[٣٢]، ويوصف هذا المخرج في البحث الحديث بأنه شفوي أسناني (Labiodentale)، والمقصود بأنه شفوي، اشتراك

الشفة السفلى في النطق، والمقصود بكونه أسنانيًّا، اشتراك الأسنان العليا في نطقه.

وفي هذا المجال نشير إلى ابن جني، حين يبدأ كلامه عن المخارج وعددها دون تحديد المصطلح (مخرج) أو تعريفه على نحو ما فعل سيبويه، فهو يبدأ الكلام عن المخارج وعددها مباشرة فيقول: «اعلم أن مخارج هذا الحروف ستة عشر...»[٣٢]، ثم يشرع في وصف هذه المخارج مثلما فعل صاحب الكتاب، ويثني على هذا الأخير ويشكره على التقسيم الذي أتى به أثناء تقسيمه للمخارج، ثم يؤخذ على كل من خالفه مثل الأخفش الذي ذهب إلى الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها، ثم يقدم ابن جني ترتيبه للمخارج، حيث استعمل مصطلح (المخرج) مقابل مصطلح (المقطع) عنده، حيث يقول: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النّفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف باختلاف مقاطعها...»[٣٤].

وواضح من خلال تعريف ابن جني لمخرج الصّوت أنه نهج منهج اللغويين القدامى في تعريف مخرج الأصوات، إذ جاءت تعريفاتهم في كثير من الأحيان غير واضحة، فهم يرون -مثلاً- أنّ الأصوات تنشأ من أقصى الحلق، ويسمون ذلك المكان (المقطع)، ثم يتحدد الصوت عن طريق حصره في مكان ما من الفم، ويسمون ذلك المكان (المعتمد)،حيث يقول ابن درستويه في هذا الشأن: «وليست الألف من الحروف الحلقية، ولا لها معتمدٌ في الحلق ولا غيره؛ لأنها من الحروف الهاوية في الجوف، وإنما مقطعها في أقصى الحلق، والحروف كلها مقطعها هناك؛ لأنّ الصّوت إنما يخرج من الحلق، ثم يحصره المعتمد فيصير حرفا»[٣٥].

وقد أدّى اختلاف أئمة اللغة في الاصطلاح والتسمية لمدلول (المخرج) إلى الاختلاف في عدد المخارج، فهي عند الخليل -كما ذكرنا- ثمانية، وعند الفرّاء (ت ٢٠٧هـ)، وقطرب(ت ٢٠٦هـ)،وأبي عمر الجرمي (ت ٢٢٥هـ)، وابن دريد (ت ٣٢١هـ)، وابن كيسان (٢٩٩هـ) أربعة عشر مخرجاً، أمّا سيبويه ومن تلاه فعدّوها ستة عشر مخرجاً، وقد أوجز الجرمي رأي من ذهب إلى عدّها أربعة عشر بالقول: «للحروف أربعة عشر مخرجاً، وذلك أنه جعل اللام والنون والراء من مخرج واحد، وجعل لها سيبويه ومن تابعه ثلاثة مخارج متقاربة»[٣٦].

وذكر ابن الجزري الاختلاف في عدد المخارج، فجعلها عند المحققين وسمى طائفة منهم، مكي بن أبي طالب، الهزلي، سبعة عشر، وذكر أنه الصحيح المختار[٣٧]. وهي -كما ذكرها سيبويه- يضاف إليها مخرج الغنّة، فهذا الخلاف بين اللغويين القدماء وعلماء القراءات حجة قاطعة على أنّ النتائج التي بلغوها تقتضي إحاطتهم بأعضاء النطق وكيفية حدوث الصّوت ودقّة تعيين كل مخرج[٣٨].

هذه هي مصطلحات مخارج الأصوات العربية كما سماها سيبويه وكيفية نطقها، وكما ذكرت في كتب التراث العربي. والآن نودّ أن نخلص من هذا الحديث عن المصطلحات المستعملة، والمهملة منها، ونوضّح ترتيب الأصوات العربية ومخارجها عند سيبويه، من خلال حديثه عن الأصوات في باب الإدغام من الكتاب، حيث يقول في هذا الموضع: «ولحروف العربية ستة عشر مخرجاً: فللحلق منها ثلاثة، فأقصاها مخرجاً: الهمزة والهاء والألف، من أوسط الحلق مخرج العين والحاء، وأدناها مخرجاً من الفم الغين والخاء، ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف، ومن أسفل موضع القاف من اللسان قليلاً، ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف، ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء، ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضّاد، ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا مخرج النون، ومن مخرج النّون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً؛ لانحرافه إلى اللام مخرج الرّاء، ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطّاء والدّال والتّاء، ومما بين طرف اللّسان وفويق الثنايا مخرج الزّاي والسّين والصّاد، مما

بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء، ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء، ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو، ومن الخياشيم مخرج النّون الخفيفة»[٣٩].

فالمصطلحات التي وظّفها سيبويه للدّلالة على مخارج الحروف بحسب ترتيبها في النّص السابق هي كالآتي:

١ــــ الحلق.
٢ــــ أقصى الحلق: الهمزة والهاء والألف.
٣ــــ وسط الحلق: العين والحاء.
٤ــــ أدنى الحلق: الغين والخاء.
٥ــــ اللسان.
٦ــــ أقصى اللسان ما فوقه من الحنك الأعلى: الكاف.
٧ــــ أسفل اللسان: الكاف.
٨ــــ وسط اللسان: الجيم والشين والياء.
١٠ــــ أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس: الضاد.
١١ــــ منتهى طرف اللسان وما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا: النون.
١٢ــــ ظهر اللسان: اللام والراء.
١٣ــــ طرف اللسان وأصول الثنايا: الطاء والدال والتاء.
١٤ــــ طرف اللسان وفويق الثنايا: الزاي والسين والصاد.
١٥ــــ طرف اللسان وأطراف الثنايا: الظاء والذال والثاء.
١٦ــــ باطن الشفة السفلى: الفاء.
١٧ــــ بين الشفتين: الباء والميم والواو.
١٨ــــ الخيشوم: النون الخفيفة[٤٠].

فنلاحظ من خلال هذا الترتيب أن سيبويه قد قسّم مخارج الحروف العربية على خمس مناطق في جهاز النطق عند الإنسان وهي:

١ – الحلق. ٢– اللسان. ٣– الأسنان. ٤ – الشفة. ٥ – الخيشوم[٤١].

إنّ مجال الاتفاق بين ما قدمه الأقدمون وما هو واقع اليوم أوسع من مجال الاختلاف، خاصّة في مجال تحديد المسمّيات والمصطلحات لهذه المدلولات الجديدة والعلم الجديد لدى العرب (علم الأصوات)، وعلى الرغم من أن كثيراً من نقاط الاختلاف يمكن أن نغضّ النّظر عنها وأن نهملها؛ وذلك لشدّة التقارب والتداخل بين مخارج النطق، فليس في الواقع أنّ هناك حدوداً فاصلة فصلاً تاماً بين بعض المخارج، ومن ثمّ فإنه من الجائز أن تنسب مجموعة من الأصوات إلى مخرج معين، وينسبها باحث آخر إلى مخرج آخر قريب منه أو متصل به ومتداخل معه؛ إذ يجد المتأمل بأن هناك بعض أوجه الخلاف والاتفاق بين معطيات الأقدمين (سيبويه) والمحدثين التي نحاول أن نوضحها في النقاط التالية:

لقد خالف سيبويه الخليل بجعله (الهمزة) أول الأصوات العربية، وتبعه ابن جني، وهذا حكم دقيق، قياساً إلى ما توصل إليه الدّرس اللّغوي الحديث، مع فارق واحد، هو أن القدماء قد جعلوا مخرج الهمزة من أقصى الحلق. ومخرجها عند المحدثين من (الحنجرة)، إذ الحنجرة أسبق من الحلق، وما يعلّل رأيهم أنهم أطلقوا الحلق على منطقة واسعة، تشمل الحنجرة وغيرها، وتكون الحنجرة حينئذ هي المقصودة بمصطلح (أقصى الحلق)، على الرغم أن أئمة اللغة الأقدمين لم يشيروا إلى الحنجرة في كلامهم، ولم يعدّوها من مخارج الأصوات العربية.

جعل سيبويه (الألف) من ذوات المخارج، ومخرجها (أقصى الحلق)، ولم ينسبها المحدثون إلى مخرج

معين، بوصفها حرف مدّ، يمثل في اللغة العربية وفي كل مواضعه حركة هي (الفتحة الطويلة)، وما نطقها إلا نتيجة لهيئة حجرة الرّنين، لا إقفال ولا تضييق في مخرج بعينه، شأنها في ذلك شأن العلل والحركات.

حيث يذهب بعض المحدثين إلى عدّ الألف حركة في كل مواضعه، كالياء والواو، وقد ذُكر في أبجدية المحدثين. وهذا الاعتراض مردود؛ لأن للياء والواو جانبين: الأول كونهما حركتين طويلتين، أيضاً هما (الضّمة والكسرة)، والثاني كونهما من الأصوات الصّائتة، وهما مذكوران في أبجدية سيبويه بهذا الوصف الأخير؛ بدليل وضع (الياء والجيم والشين) في مخرج واحد، وهذا ما لا يمكن عمله بالنسبة للياء الممدودة، أي: (الكسرة الطويلة)[٤٢].

وإذا كان حكم سيبويه على الهمزة بأنها أول الحروف مخرجاً حكماً سليماً بالمنظور الحديث، فإنما يقع الإعراب عليهما من زاوية جعله (الواو) آخر الحروف مخرجاً واعتبارها حرفاً شفويًّا، فالدّرس اللغوي الحديث أثبت أن (الواو) في نحو (ولد) تخرج من أقصى الحنك، أي: من منطقة الكاف أو ما يقرب منها، مع اتخاذ الشفتين وصفاً معيناً، فهجائية سيبويه الصوتية -كما ذكرها في الكتاب- هي: الهمزة، الألف، هـ، ع، ح، غ، خ، ق، ك، ج، ش، ي، ض، ل، ن، ر، ط، د، ز، س، ظ، ذ، ث، ب، م، و[٤٣]. فهي لا تختلف عن هجائية المبرد[٤٤]، وهجائية ابن جني[٤٥]، والسكاكي الذي وضع شكلاً مصوراً لمخارج الأصوات[٤٦]، أمّا ترتيب بقية الأصوات عند سيبويه، فهو ترتيب مقبول ومعقول، بل إنه - كما في حال الفاء والباء والميم مثلاً- بلغ غاية الدّقة، والذي يعكر صفوه ومن تبعه من القدماء في هذا الترتيب، هو نسبة بعض هذه الأصوات إلى مخارج، تختلف مع تصورات الدّرس الحديث. وسوف تتضح أبعاد هذا الخلاف والتضارب وغيره أكثر في مواضع لاحقة، حين الحديث عن المصطلحات التي استعملها صاحب الكتاب للدلالة عن صفات الأصوات وتقسيماتها عنده.

٢ - مسميات صفات الأصوات عند سيبويه:

تنقسم الأصوات إلى مجموعات أو فئات بحسب مخارج النطق وأحيازه، وإيعاز الأصوات إلى مواضعها يختلف اختلافاً واضحاً من لغة إلى أخرى؛ ذلك لأنّ نطق الأصوات بالإشارة إلى مواضع نطقها أساسه الخبرة الفعلية والعادة النطقية التي درج عليها المتكلم، ومن الطبيعي والمقرر عند دارسي الأصوات أن يختلف الناس في خبراتهم وعاداتهم في النطق من لغة لأخرى[٤٧].

إذ تنقسم الأصوات اللغوية إلى أصوات صامتة (les consonne) وأخرى صائتة أو لينة (les voyelles) حيث يوضح هذا إبراهيم عطية في قوله: «ويطلق علماء الأصوات مصطلح الأصوات الصامتة أو الساكنة على الأصوات التي يلقى الهواء المندفع عقبات وحوائل تؤدي في بعض الحالات إلى إغلاق تام لمجرى الهواء، وبعكسها أصوات اللين فإنها تجد حدًّا أدنى من تلك الحوائل، بالقياس إلى ما تصادفه الأصوات الصّامتة»[٤٨].

وتعدّ أصوات العربية كلها صامتة عدا أصوات (الواو والياء والألف) وما يتفرع منها من حركات أصوات صامتة، وللأصوات الصامتة بعض الصفات الخاصّة بها، منها ما تسمى بالصفات العامّة، نحو الجهر والهمس، الشدة والرخاوة...إلخ، وصفات خاصّة نذكر منها التكرار، الانحراف، التفشي والاستطالة... إلخ[٤٩].

أ - مصطلحات الصّفات العامّة:

١ - الجهر والهمس:

قد رأينا فيما سبق ذكره أنّ للأصوات صفات كثيرة وعديدة، وتصنف هذه الأصوات بحسب اعتبارات خاصّة تعتمد في التقسيم، وأولها ذبذبة الوتران الصّوتيان من عدمهما في ظاهرة (الجهر والهمس)[٥٠].

لقد عرف العرب هذا التقسيم والتصنيف وميزوا بين مجهور الأصوات ومهموسها. ونلفي سيبويه يعرّف المجهور في قوله: «فالمجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصّوت، فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم، فتصير فيهما غنّة؛ والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما»[٥١]. وحروفه عنده تسعة عشر، بحيث يقول في عدها: «فأمّا المجهورة، فالهمزة، والألف والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضّاد، واللام، والنّون، والرّاء، والظاء والذال، والباء، والميم، والواو، فذلك تسعة عشرة حرفاً»[٥٢]، أمّا المهموس فعرفه سيبويه بقوله: «هو حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فردّدت الحرف مع جرى النفس، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه، فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد، أو بما فيها منها، وإن شئت أخفيت، والأصوات المهموسة عند سيبويه: «...الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء، فذلك عشرة أحرف».

فمصطلحا (الجهر والهمس) وردا عند القدامى بمعنى واحد، هذا ما يؤكده ابن جني في قوله: «فمعنى المجهور: أنه حرف أشبع الاعتماد من موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، وأما المهموس حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس وأنت تعتبر ذلك بأنه قد يمكنك تكرير الحرف مع جري الصوت نحو سسس، ككككك، هههه، ولو تكلفت مثل ذلك في المجهور لما أمكنك»[٥٣]. فابن جني هنا أعاد ما أتى به سيبويه في الجهر والهمس، وكذلك يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في الشأن نفسه: «والجهر إشباع الاعتماد في مخرج الحرف ومنع النفس أن يجري معه، والهمس بخلافه، والذي يعرف به تباينهما أنك إذا كررت القاف فقدت فقق، وجدت النفس محصوراً، لا تحس معها بشيء منه، وتردد الكاف فتجد النفس مقاوداً لها، ومساوقاً لصوتها»[٥٤]، وأيضا ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)[٥٥].

فنلاحظ أن سيبويه كان على علم حقيقي بطبيعة الجهر والهمس الصوتية. وبعد الإمعان في تعريفه لهما، يمكن لنا أن نستخلص بعض الملاحظات:

أن سيبويه استعمل في التعريفين مصطلحي (الإشباع والإضعاف)، ويبدو من المقابلة بينهما أن الإشباع يعني التقوية، والإضعاف يعني سلب القوة.

الإشباع ← التقوية.

الإضعاف ← سلب القوة.

يظهر من إسناد الإشباع والإضعاف (الاعتماد) واتفاق منع جري الصوت مع إشباع الاعتماد وجري النفس مع إضعاف الاعتماد، أن الاعتماد يعني الضغط:

اعتماد ← ضغط[٥٦].

يتجلى من استعمال سيبويه لمصطلح (موضع) دون مصطلح (مخرج) في تحدثه عن الجهر والهمس، فالمقصود بالمصطلح الأول غير المقصود بالمصطلح الثاني وأن (المخرج) دون الموضع، حيث يقول تمام حسان في هذا الشأن: «إن الاعتماد له موضع، ولا يوصف بأنه له مخرجاً؛ لأن المخارج عند سيبويه للحروف فقط... وكذلك الاعتماد يكون من موضعه (والضمير للاعتماد) واقعاً على مخرج الحرف، ضاغطاً عليه فمنشأ الاعتماد وموضعه هو الحجاب الحاجز، الضاغط على الرئتين؛ لإفراغ ما فيهما من هواء، وهو -أي: الاعتماد أو الضغط- واقع على مخرج الحرف، أي: المكان الذي يتم نطقه فيه»(٥٧)، ويظهر أيضاً من

كلام سيبويه في قوله: «ومنع النفس أن يجري معه... ويجري الصوت»(٥٨)، أي: أن هناك نوعاً من التقابل بين النفس وبين الصوت، يمكن توضيحه كما يأتي:

النّفس ← بالهمس (Bréhat).

الصّوت ← بالجهر [٥٩] (Voice).

ويؤكد هذا الكلام لمصطلحات العبارة السابقة، وهي منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، فكأن الأوتار الصوتية حين يتقارب بعضها من بعض، تكاد تمنع الهواء من المرور، وهذا يجعل الهواء يؤثر عليها بالاهتزاز المستمر حتى ينتهي الصوت إلى مخرجه، ويبرز إلى الوجود، وأما المهموس فإن سيبويه قد صرّح بأنه حرف أضعف الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس[٦٠]، وجري النفس مع الصوت معناه أن الهواء وجد الطريق متسعاً لخروجه، وهذا فيما يبدو نتيجة ابتعاد الوترين عن بعضهما، فلا يؤثر الهواء فيهما بالاهتزاز، ومن ثم تضعف قوة بروز الحرف؛ مما يجعله مهموساً[٦١]، حيث يوافق هذا الرأي إبراهيم أنيس، إذ يقول مفسراً للعبارتين السابقتين: «منع النفس وجري النفس» ومعنى هذا أن الحس المرهف لسيبويه، جعله يشعر مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى يكادان يسدّان طريق التنفس، وتلك هي الصفة التي وضحها المتأخرون من علماء الأصوات، حين وصفوا ما يجري في الحنجرة مع المجهورات، وهذا يضطر هواء التنفس يندفع من بينهما في قوة تحرك الوترين الصوتيين، وتجعلهما يتذبذبان حتى ينقضي الاعتماد، أي: حتى تنتهي العملية العضوية المطلوبة في إصدار الصوت، أمّا في حالة المهموس، فنجد طريق التنفس معه مفتوحاً، بحيث يسمح بانسيابه حرًّا، فقد عبّر سيبويه أيضاً عن المهموس بضعف الاعتماد، أي: عدم تمكن الصوت في أثناء جريانه في مجراه ؛مما يترتب عليه قلة وضوحه، وتلك هي الحالة التي عبّر عنها المحدثون بقولهم: إنّ الوترين الصوتيين مع المهموس، يبتعد أحدهما عن الآخر، فينطلق النفس من بينهما دون الحاجة إلى تحريكهما[٦٢]، وبهذا نجد أنّ تعريف سيبويه (للمجهور والمهموس) لا يقوم أساساً على اهتزاز الوترين الصوتيين في الحنجرة أو عدم اهتزازهما، وإنما يقوم على جري النّفس أو عدم جريه، وهذا ما يقودنا إلى النتائج التالية:

أ – أنّ سيبويه لم يكن يعرف وظيفة الأوتار الصوتية في الجهر والهمس، بل لم يكن يعرف حتى تركيب الحنجرة؛ بدليل تسميته إياها أقصى الحلق واعتبار إياها جزءاً قصيًّا من الحلق، حيث نجد حسام النعيمي يؤكد هذا في قوله: «والعلماء العرب، لم يكونوا يعرفون دور هذين الوترين في صفة الحروف، ومن ثم لم يشيروا إليهما»[٦٣].

ب – أنه رأى الجهر نتيجة لتقوية الضغط والتمكن، كما رأى الهمس نتيجة لإضعافه وعدم التمكن.

ج – فسيبويه يرى أن الجهر مظهره (الصوت)، وأنّ الهمس مظهره (النفس)[٦٤].

٢ – الشدّة والرخاوة:

تحدث ظاهرة (الشدّة والرّخاوة) عن طريق التقاء عضوي النطق التقاءً محكما، وعندما ينفصلان يحدث الصوت الشديد، أما الصوت الرخو فيحدث عدم التقاء عضوي النطق التقاءً شديداً؛ مما يسمح بمرور الهواء وحدوث احتكاك[٦٥]، وقد وصف سيبويه (الشدة والرخاوة) بدقة، حيث يقول: «ومن الحروف الشديدُ، وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، وهو الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء والتاء، والدال، والباء، وذلك أنك لو قلت ألْحَجَ ثم مددت صوتك لم يجر ذلك»[٦٦]، ومنع جريان الصّوت هو الانحباس المؤقت الذي نحس به في مخرج الحرف لحظة قصيرة جدًّا؛ بسبب التقاء العضوين التقاء محكماً، فإذا انفرجا فجأة سمعنا ما يسمى بالصّوت(الشديد)، وهو ما يسميه المحدثون بالصّوت (الانفجاري)، وبهذا فرّق سيبويه بين (المجهور والمهموس)، كما ظن البعض، فالمجهور -كما ذكرنا سابقاً-

نحس فيه بمنع النفس وعدم انطلاقه حرًّا طليقاً، ولكن الصّوت معه لا يمنع، بل نظل نسمعه، أمّا مع الشديد فعند المخرج يمنع الصوت، فلا نسمع شيئاً، طالما كان الانحباس في المخرج موجوداً[٦٧]، وما يبرر هذا قول إبراهيم أنيس في هذا الشأن: «والدليل على ما نقول أن سيبويه حين تحدث عن اللام والنون اعتبرهما من الحروف الشديدة؛ لأنّ طرف اللسان معهما يلزم مكانه، ولكن الصّوت مع هذا يخرج، ففي حالة اللام يخرج الصّوت من جانبي الفم وفي حالة النون يخرج من الأنف»[٦٨]، ويقول سيبويه أيضاً في الأصوات الرخوة ما نصّه: «ومنها الرّخوة وهي: الهاء، والحاء والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال والفاء، وذلك إذا قلت الطّس وانْقَض، وأشباه ذلك، أجريت فيه الصوت إن شئت»[٦٩]. فهذه الأصّوات الرخوة برغم التقاء العضوين وحدوث انحباس، لكن هذا الانحباس ليس كليًّا، بل جزئيًّا، يترك بينهما ممراً ضيقاً، يسمح بتسرب الهواء. وتسرب الهواء هذا هو الذي عبّر عنه سيبويه «بجريان الصوت»[٧٠].

وأضاف علماء العربية صفة ثالثة للصّوت – غير الشديد والرّخو – اصطلحوا عليه متوسطاً تارةً وما بينهما تارةً أخرى، حيث يقول (ابن الحاجب) في هذا الشأن: «...تنقسم جميع حروف التّهجي قسمة مستأنفة ثلاثة أقسام، شديدة ورخوة، وما بينهما...»[٧١]، وأطلق عليه المتأخرون (مصطلح التوسط)، معللين ذلك أنه في بعض الأصوات لا يلاقي الهواء عند مروره في مجراه انحباساً ولا احتكاكاً؛ إمّا لأن مجراه في الفم من المعوقات كما في صوتي الواو والياء، وإمّا لأن مجراه في الفم يتجنب المرور بنقطة السداد والتضييق كما في صوت اللام حيث يوضّح هذا إبراهيم أنيس في كتابه (الأصّوات اللّغوية)، ويقول ما نصّه: «...مع بعض الأصوات قد يجد النفس له مسرباً، يتسرب منه إلى الخارج وحينئذ يمر الهواء دون أن يحدث أي نوع من الصفير أو الحفيف، ويلاحظ هذا مع اللام والنون والميم والراء»[٧٢]. ولعل هذا هو الذي دعا القدماء إلى تسمية هذه الأصوات بالأصوات المتوسطة، أي: التي ليست انفجارية ولا احتكاكية أو لا شديدة ولا رخوة، حيث يقول سيبويه في هذا الصدد: «وأما العين فبين الرخوة والشديدة، تصل إلى الترديد فيها؛ لشبهها بالحاء»[٧٣]، وقد برهن علماء الأصوات المحدثون بتجاربهم على أن هذه الأصوات تكوّن مجموعة خاصة، لا هي بشديدة ولا رخوة، واصطلحوا عليها الأصوات المائعة (liquides) [٧٤].

أمّا حديث علماء الأصوات المعاصرين عن (الشدة والرخاوة)، فلم يختلف عمّا قال به القدماء فأوعزوه إلى طريق تيار الهواء المندفع من الرئتين، كما يوضحه رمضان عبد التواب في قوله: «...لقد قلنا إنه في الإمكان أن يعوق تيار الهواء الخارج من الرئتين عائق: يضعه من المرور، عند أي مخرج من هذه المخارج، ثم يزول هذا العائق بسرعة، وبهذا يندفع الهواء الخارج بانفجار شديد، وإما أن يضيق المجرى عند أي مخرج من هذه المخارج ضيقاً، يسمح للهواء بالمرور مع الاحتكاك بمكان التضييق»[٧٥].

ويسمى الصّوت الخارج في حالة وجود عائق عضوي صوتاً شديداً أو انفجاريًّا[٧٦]، ويصطلح عليه أيضاً انسداليًّا وما يسميه الغربيون (Plosive)، حيث يقول إبراهيم أنيس في هذا الصدد: «...وقد ينحبس في مكان ما لحظة سريعة جدًّا، بعدها ينطلق بقوة، وهنا نلحظ له انفجاراً ودويًّا»[٧٧]، أمّا الصّوت الحاصل في حالة تضييق نقطة في المخرج فيسمى صوتاً رخواً أو احتكاكيًّا، وقوله أيضاً في الرخو: «أمّا الأصوات الرخوة فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً، وإنما يكتفي بأن يكون مجراه عند المخرج ضيقاً جدًّا، ويترتب على ضيق المخرج أنّ النّفس في أثناء المرور بمخرج الصّوت يحدث نوعاً من الصفير أو الحفيف، تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى»[٧٨]، وكل صوت صدر بهذه الطريقة، اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الرخو. وهذه الأصوات يسميها المحدثون بالأصوات الاحتكاكية fricatives، وعلى قدر نسبة الصفير في الصوت، تكون رخاوته، ويجعل (فندريس) لإنتاج الصوت الانفجاري ثلاث مراحل، فيقول ما نصّه: «ففي كل صامت انفجاري ثلاث خطوات متميزة، الإغلاق أو الحبس، والإمساك الذي قد يكون طويل المدى أو قصيره، والفتح والانفجار...»[٧٩].

والشرط الوحيد في إنتاج الأصوات (الشديدة الانفجارية) هو سرعة زوال العائق، فإنه يوجد صوت من أصوات العربية لا يزول فيه العائق، بسرعة بل إن العضوين المتصلين لا ينفصلان انفصالاً سريعاً، وإنما انفصالهما انفصال بطيء، وفي الانفصال البطيء مرحلة بين الانسداد المطلق والانفتاح المطلق شبيهة إلى حدّ ما إلى التضييق الذي عرفنا أنه من مميزات الأصوات الرخوة الاحتكاكية، لذا فإن هذا الصّوت يجمع بين الشدّة والرخاوة، بمعنى أنه يبدأ شديداً انفجاريًّا، وينتهي رخواً احتكاكيًّا[٨٠]، واصطلح عليه المحدثون عدّة مصطلحات، منها (الصوت المركب)، و(الصوت المزجي)، و(الصوت المزدوج)، وما يسميه علماء الغرب بـ: (Africaté)، وكذلك يصفها أحمد حساني في قوله: «أمّا الجيم فهي انسدادية مزدوجة مركبة أو معطّشة»[٨١]، وفي الأخير نرى أنّ تعريف سيبويه لظاهرة «الشدة والرخاوة» يلفت نظرنا إلى شيء تنبّه له العلماء الغربيون كذلك هو أن الأصوات الشديدة أصوات وقتية آنية (moment lente)، لا يمكن التغني بها وترديدها؛ لأنها تنتهي بمجرد زوال العائق وخروج الهواء، أمّا الأصوات الرخوة فإنها أصوات استمرارية متمادّة (Permanente)، يمكن التغني بها واستمرار نطقها بلا انقطاع، ما دام الهواء موجوداً، كما يوضح هذا (جان كانتينيو) بقوله: «وتوافق المقابلة بين الشدة والرخاوة مقابلتنا بين (occlusion) و(occlusive) موافقة كاملة.

٣ – الاستعلاء والاستفال:

تعرّض القدماء إلى هذه الظاهرة، واصطلحوا عليها عدّة مسميات، فنجد ابن جني يقسم الأصوات العربية إلى قسمين، أطلق عليهما مصطلحي الأصوات (المستعلية والمنخفضة)، ويعرف المستعلية بقوله: «فالمستعلية سبعة وهي: الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والصاد والظاء، وما عدا هذه الحروف فمنخفض»[٨٢]، وفسّر الاستعلاء بقوله: «ومعنى الاستعلاء أن تتصعد في الحنك الأعلى، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق، وقد ذكرناها، وأما الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها»[٨٣]، أمّا الزمخشري[٨٤] وابن يعيش[٨٥] فيعرّفان هذه الظاهرة الصّوتية التي تعتمد على وضعية مقدمة اللسان فيقولان في هذا ما نصّه: «الاستعلاء بارتفاع اللسان إلى الحنك، أطبقت أم لم تطبق، والحروف المستعلية هي الحروف المطبقة الأربعة، ثم القاف والخاء والغين»، وهذا ما يؤكده الرضى الأستربادي في قوله: «إن الحروف الثلاثة غير المطبقة، يرتفع اللسان بها أيضاً، ولكن لا إلى حدّ انطباق الحنك عليها»[٨٦]، بمعنى أنه بداية إطباق لا إطباق كله، أمّا ابن الجزري فيعرّف صفة الاستعلاء والاستفال بقوله: «والمستفلة وضدها المستعلية، والاستعلاء من صفات القوة، وهي سبعة، يجمعها قولك (قظ – خص – ضغط)، وهي حروف التفخيم على الصواب، وأعلاها الطاء كما أن أسفل المستفلة الياء، وقيل حروف التفخيم هي حروف الإطباق، لا شك أنها أقواها تفخيماً»[٨٧].

الاستعلاء لا يخلو من بعض الاتصال بالإطباق، كما يلاحظ من تعريفات القدامى، خاصّة ابن جني الذي فصّل وأفاض في قضية وصف الاستعلاء وجزئياتها وأشار إلى الحروف المستعلية في كونها غير مطبقة، أي: لم يترك مجالاً للّبس، حيث يشير ابن جني في تعريفه (التصعد في الحنك الأعلى) ارتفاع مؤخرة اللسان فيها، وقد تبين لنا أن أصوات الاستعلاء التي ذكرها العرب لا تخرج عن كونها (لهوية) كالقاف، أو (طبقية) كالغين والخاء، و(أسنانية لثوية) كالصاد والضاد والطاء والظاء، وترتفع معها جميعاً مؤخرة اللسان صوب الحنك الأعلى، هذا ما يوضّحه عبد الواحد وافي في حديثه عن صفتي الاستعلاء والاستفال أو الانخفاض حيث يقول: «الاستعلاء هو الصعود والارتفاع في أعلى الحنك، والانخفاض أو الاستفال ضدّه، وحروف الاستعلاء هي حروف الإطباق والخاء والعين والقاف، وحروف الانخفاض هي ما عدا ذلك»[٨٨].

ولم يحدّد ابن جني للحروف المستفلة أو المنخفضة تعريفاً دقيقاً، وإنما اكتفى بالقول: إن المنخفضة هي ما عدا الحروف المستعلية السبعة «فالمستعلية سبعة... وما عدا هذه الحروف منخفض»[٨٩]، فلم يشر أية إشارة إلى القصد بالتحديد إلى الاستفال أو الانخفاض، لكن يوجد شيء من هذا القبيل عند الأستربادي

في شرحه لـ(شافية ابن الحاجب)، حيث شرح هذا الخير شيء ما عن مصطلحي الاستعلاء والانخفاض، فقال: «إنها الحروف التي ينخفض معها اللسان ولا يرتفع، وهي كل ما عدا المستعلية»[٩٠].

ولم يوجد وصف هذه الظاهرة (الاستعلاء والانخفاض) عند عالمنا الجليل سيبويه، حيث أشار إليه من خلال حديثه عن حروف الحلق، وقال بأنها حروف سفلت في الحلق ووصف ما سواها بالحروف المرتفعة[٩١]، أي: أنه لم يورد لها (الاستعلاء والانخفاض) عنصراً مستقلاً بذاته نحو (الجهر والهمس والشدة والرخاوة...إلخ)، وهذا ما يوضحه الدكتور حسام النعيمي في قوله: «ووصف الحروف بالاستعلاء والانخفاض، لم أجده عند سيبويه، ويبدو أن اتصال أقصى اللسان بأدنى الحلق أو أقصى الحنك اللين (اللهاة) هو الذي جعلهم يصفون هذه الثلاثة الخاء والغين والقاف بالاستعلاء»[٩٢]، ويضيف بعض المحدثين العين والهاء إلى الحروف المستعلية.

٤ – التفخيم - الإطباق والترقيق - الانفتاح:

التفخيم هو ظاهرة صوتية، أو أثر صوتي يصاحب نطق بعض الأصوات، حيث يعرّفه المحدثون بأن (التفخيم – vélarisation) أثر سمعي، ينتج عن عوامل فسيولوجية متداخلة، وسمّوه أيضاً التفخيم، أو التجليد أو التسمين، وهو صفة بعض الحروف، منها المطبقة الأربعة، وكذا القاف والخاء والغين والراء واللام[٩٣]، وهو خلاف (للترقيق)، أي: مقابل له، وفي كيفية حدوث هذه الظاهرة الصّوتية، يقول الدكتور كمال بشر: إنها تقوم على عاملين «أولهما ارتفاع مؤخر اللسان تجاه أقصى الحنك (The velum) أو (The soft palats) الحنك اللين، فيحدث تغير في التجويف الفموي، يحدث رنيناً مسموعاً (Résonance)، ثانيهما على ما يقال: رجوع اللسان إلى الخلف بصورة أسرع مما يحدث له في أثناء النطق بالأصوات المرققة»[٩٤]، هذا يوضح أن للتفخيم جانبين جانباً عضويًّا، متمثلاً في وضع اللسان وما يتبعه في الفم، وجانباً سمعيًّا ذا خاصية مميزة.

ووصف الأصوات اللغوية بهذه الصفة، يعدّ من خصوصيات اللغات السامية، حيث يقول فهمي حجازي موضحاً الأمر: «تصنيف الأصوات اللغوية من حيث الإطباق والانفتاح، يعدّ من السمات المميزة للغات السامية، وكان سيبويه أول من تعرف على هذه السمة. والأصوات المطبقة في اللغة العربية هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء»[٩٥]، هذا عند المتأخرين، أمّا عند أئمة اللغة فنلفي الخليل يستعمل مصطلح الحروف (الفخام)، جمع فخم، إشارة إلى هذه الأصوات الأربعة ذاتها التي أطلق عليها البعض (الحروف المطبقة أو حروف الإطباق)، وفي استخدام هذا المصطلح إشارة واضحة إلى الأثر السمعي لهذه الأصوات، دون التعرض لعملية إصدارها[٩٦]، ويبدو أن هذا المصطلح الخليلي المأخوذ من الفعل (فَخُمَ) قد وجد له مكاناً في بعض أعمال التابعين، وسوّغ لبعضهم توليد مصطلح آخر من المادة الأصلية ذاتها وهو (التفخيم).

أمّا سيبويه فيذكر الحروف المطبقة وهي عنده الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، ويعرّفها كالآتي: «وهذه الحروف الأربعة، إذا وضعت لسانك في مواضعهنّ، انطبق لسانك من مواضعهنّ إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان، ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف»[٩٧]. حيث نستخلص من كلام سيبويه النقاط التالية:

- الحروف المطبقة هي الصاد، الضاد، الطاء، الظاء.
- الإطباق يتم برفع اللسان إلى الحنك الأعلى.
- الإطباق يحصر الصوت ومعناه الأثر السمعي بين اللسان والحنك.
- الإطباق ضد الانفتاح.
- الحروف المنفتحة كل ما عدا المطبقة.
- الإطباق يرادف التفخيم، والتفخيم يلازم الإطباق كما في ص. ض. ط. ظ، لكنه لا يتوقف عليه، وبهذا

يكون سيبويه بعبقريته قد أدرك في هذا الزمن السحيق[٩٨] الخواص المميزة لأصوات الإطباق، وأدرك أنه يمكن نسبة هذه الأصوات إلى موضعين من مواضع النطق: موضع النطق الأصلي للصوت المعين، وموضع الإطباق، وهو عنده ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان، وأدرك أيضاً عملية الإطباق ذاتها، وهي عملية فيزيولوجية وأثرها السمعي في الأصوات ألا هو (التفخيم)، وهذا ما يوضح أن كلام سيبويه يتفق مع وجهة النظر الحديثة في هذه الظاهرة الصوتية المركبة للتفخيم.

ب - مسميات الصفات الخاصة في الكتاب:

ويصطلح عليها أيضاً الصّفات الأحادية، التي ليس لها مقابل، وعددها غير محدد ولا نهائي، ونذكر من أهمها:

١ - الذلاقة والإصمات:

وهذان المصطلحان انفرد بهما العرب القدامى، ولم يعرفهما المحدثون من أهل الاختصاص، حيث يعرّف ابن دريد مصطلح (ذلق) في جمهرته، بأنه طرف اللسان المستدق[٩٩]، والذلاقة في الأصوات هي مصطلح، يندرج تحته نوعان من الأصوات، الأول ذلقي، مخرجه من ذلق اللسان من طرف غار الفم، ويشمل أصوات (الراء واللام والنون)، والثاني شفوي، مخرجه من بين الشفتين، ويشمل أصوات (الفاء والميم والياء)، حيث يوضح هذا الدكتور حامد هلال في قوله: «المذلقة هي التي يعتمد عليها بذلق اللسان، وهو مصدره وطرفه وهي ستة (مر بنفل)[١٠٠]، ويطلق على هذين الصفتين عدّة مصطلحات، منها (الذلقية، أو الذليقة، أو الذولقية).

فقد أشار إليها الخليل في معجمه بقوله: «أعلم أن الحروف الذلقية والشفوية ستة وهي: (ر، ل، ن، ف، ب، م)، وإنما سميت هذه ذلقاً؛ لأنّ الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف اللسان والشفتين، وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة، منها ثلاثة ذلقية «ر، ل، ن تخرج من ذلق اللسان من طرف غار الفم، وثلاثة شفوية (ف، ب، م) مخرجها من بين الشفتين»[١٠١].

و(الإذلاق) في اللغة العربية يقابله مصطلح (الإصمات)، وهو يشمل باقي أصوات العربية، إنما عدّوها مصمتة؛ لأنها على رأي القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) تعني المنع، تقول: أصمتت، أي: منعت ،أي: تختص ببناء كلمة في لغة العرب، إذ كثرت لاعتياصها على اللسان، فهي حروف تنفرد بنفسها في كلمة أكثر من ثلاثة أحرف حتى يكون معها غيرها من الحروف المذلقة[١٠٢]، هذا ما يؤكده ابن جني في قوله: «سميت مصمتة أو صمت عنها»[١٠٣]، بحيث كان السبق للخليل بن أحمد في وضع ضوابط (الذلاقة والإصمات)، في الأصوات العربية، حيث تعتمد نظريته على أن أية كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من أصوات الذلاقة؛ فلابدّ أن تكون محدثة، مبتدعة ليست من كلام العرب[١٠٤].

ونعود في السياق نفسه إلى ابن جني الذي فصّل في هذه المسألة، فهو يجعل حروف الذلاقة ستة، وهي: «اللام والراء والنون والفاء والباء والميم؛ لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان، وهو وصدره وطرفه»(١٠٥)، والحروف المصمتة هي باقي الحروف، وفي هذه الحروف الستة سر طريف، ينتفع به في اللغة، وذلك أنك متى رأيت اسماً رباعيًّا أو خماسيًّا غير ذي زوائد، فلابد فيه من حرف من هذه الستة أو الحرفين نحو: «جعفر، وقمطر، وسلهب، وسفرجل...إلخ»، فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من بعض هذه بالأحرف الستة، فاعلم بأنه دخيل في كلام العرب وليس منه؛ ولذلك سميت الحروف المصمتة، أي: صمت عنها، أن تبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلاقة[١٠٦]، ويظهر أن مصطلح (الذلاقة) هنا لا يعني أكثر من معناه الشائع المألوف وهو القدرة على الانطلاق في الكلام بالعربية دون تعثر أو تلعثم، فذلاقة اللسان-كما نعرف- جودة نطقه وانطلاقه في أثناء الكلام[١٠٧]، وهذا المصطلح في المعجم اللغوي العربي الحديث كما ذكره الدكتور رشاد حمزاوي في كتابه (المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة

العربية/ consonnes bilabiales et liquide) اللام والراء والنون، لقد سمى بعد القدماء هذه الأصوات الثلاثية بالأصوات الذولقية»[١٠٨]، ولم يرد هذا المصطلح (الذلاقة و الاصمات) في ثنايا الكتاب، لكن سيبويه يكون قد أشار إليه من بعيد في أبواب وفصول الكتاب المتعددة والمتنوعة، وقد أيّدت المباحث الصوتية التي جاء بها الدكتور إبراهيم أنيس شيوع استعمال حرف اللام نحو [١٣٧] مرة في كل ألف من الأصوات الصامتة في العربية، وأن نسبة الميم [١٢٤] مرة في كل ألف مرة منها، وأن نسبة النون بلغت [١١٢] مرة كذلك[١٠٩].

٢ – التفشّي:

هذا المصطلح يطلق على صفة خاصة بصوت (الشين) ومجهورها؛ وذلك لأن اللسان يتفشى فعلاً على الحنك، فيتكوّن في وسطه نوع من القناة، ينطلق منها النفس ولا يقتصر تسربه على المخرج، بل يتوزع في جنبات الفم، وقد أقرّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة تسميته بـ (chantante hushig Sound)، وهذا ما يوضحه الدكتور رشاد حمزاوي: «...وهو الشين ومجهورها، ويتميز بأن مجرى الهواء معه أكثر اتساعاً منه في أصوات الصفير، وأن الهواء معها لا يقتصر تسربه على المخرج، بل يتوزع في جنبات الفم»[١١٠].

وقد عُرفت ظاهرة التفشي عند العرب، فهذا ابن دريد يقول في مقدمة (الجمهرة) في معرض حديثه عن الأصوات ما نصّه: «...إلا أنها دخلت على الشين؛ لتفشي الشين وقربها من عكدة اللسان، بل هي مجاورة للعكدة إلى الفم»[١١١]، وفسّر العكدة في جمهرته، بأنها أصل اللسان، إنما قال ذلك بقرب مخرج الشين من مخرج الجيم والياء؛ لأن هذه الأصوات عند سيبويه وعنده من مخرج وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى.

نلفي ابن الجزري يذكر حروف التفشي، ويخصّ منها الشين اتفاقاً؛ لأنه تفشى في مخرجه حتى اتصل بمخرج الطاء، وأضاف إليها بعضهم الفاء، والضاد، وبعضهم الراء والصاد والسين والياء والثاء والميم[١١٢]. ومن المحدثين من يخصّ هذه الصفة بحرف الشين وحده، هذا ما يوضحه الدكتور الزوبير دراقي: «حرف واحد صفته التفشي وهو الشين، والتفشي يتحقق عندما ينبسط اللسان على الحنك، تاركاً في الوسط ممرًّا ينساب منه النفس وينتشر»[١١٣].

وهذا يبين أنهم لم يضيفوا على ما جاء به القدماء شيئاً ذا بال يذكر، وسيبويه قد تحدث عن صوت الشين بقوله: «ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء»[١١٤].

هي صفة (الصّاد والزّاي والسّين)، وسميت عند العرب كذلك؛ لأن صوتها كالصّفير، وهي تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان، فينحصر الصّوت هناك ويصفر به[١١٥].

٤ – القلقة (Sonorisation):

القلقة ليست في الحقيقة إلى مبالغة الجهر في الصوت؛ وذلك لئلا تشوبه شائبة همس أو غير ذلك كما شاع في لهجات الكلام[١١٦]، وهي صفة توجد في الحروف التي تجمع بين الجهر والشدة، عدد حروفها خمسة، يجمعها قولك (قطب جد)، وهي نوعان: قلقلة كبرى أو قوية، حين تكون في نهاية الكلمة عند الوقوف، وقلقلة صغرى حين تكون داخل الكلمة[١١٧]، حيث يورد شهاب الدين القسطلاني نصًّا في هذا الصدد: «...ومنها حروف القلقلة ويقال (القلقلة)، وهي خمسة، جمعوها في (قطب جد)، وتكون متوسطة كباء (نبعث)، وجيم (النجدين)، ودال (مددنا)، وقاف (خلقنا) وطاء (أطوار)، ومتطرفة كباء (لم يتب)، وجيم (لم يخرج)، ودال (لقد)، وقاف (من يشاقق) وطاء (تشطط)، لتقلقل اللسان بها عند سكونها في الوقف وغيره»[١١٨].

ونجد هذا المصطلح في كتب التراث، حيث إنّ سيبويه يسمي أصوات القلقة بالأصّوات المشربة، فيقول: «واعلم أن من الحروف حروفاً مشربة، ضغطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت، ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقة ... وذلك القاف، والجيم، والطاء، والدال، والباء، والدليل على ذلك أنك تقول الحذق، فلا تستطيع أن تقف إلا مع الصويت؛ لشدة ضغط الحرف، وبعض العرب أشد صوتاً»[١١٩]. وكذلك درج هذا المصطلح، أي: القلقلة في المعاجم العربية، فصاحب لسان العرب، يعرفه: «سمى الفراهيدي أصوات القلقة بالمحقورة»[١٣٠]، فمصطلح (حروف القلقة) ورد عند سيبويه بمصطلح أو بمسمى آخر، هو الحروف المشربة، وهي في رأيه الجمع بين الجهر والهمس، بحيث جاء وصف سيبويه لحروف القلقة وصفاً دقيقاً، بحسب ما وصل إليه الدرس الصوتي الحديث.

٥ – الانحراف (Consonne latérale):

يطلق مصطلح (الانحراف) على الحرف الذي ينحرف فيه اللسان عند النطق به، وهي صفة تخص حرفاً واحداً في العربية وهو اللام، حيث يقول سيبويه في هذا الشأن: «هو حرف شديد، جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام»[١٣١].

وقد فصّل ابن جني في صفة الانحراف بدقة، حيث إنه أوعز بأنه يوجد حرف واحد في العربية منحرف وهو اللام، من خلال قوله: «ومن الحروف حرف منحرف؛ لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت وتتجافى ناحيتا مستدق اللسان عن اعتراضهما على الصوت، فيخرج الصّوت من تينك الناحيتين وما فويقهما وهو اللام»[١٣٢].

واللام العربية في الدّرس الصّوتي الحديث هي صوت لثوي، يتم نطقه باتصال طرف اللسان باللثة[١٣٣] حيث يعتمد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا، بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم مع ترك منفذ للهواء عن إحدى حافتي اللسان أو عنهما معاً، فيرفع الحنك الأعلى فلا ينفذ الهواء عن طريق الأنف ويتذبذب الوتران الصوتيان، فاللام العربية صامت، مجهور، سني، منحرف، أو جانبي، وسمي كذلك؛ لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت[١٣٤].

٦ – التكرار:

التكرار وهو مصطلح يوصف به صوت الرّاء في العربية (consonne roulée) وهو صفة خاصّة بالراء وحده، وهذا ما نجده عند شيوخ العربية القدماء، فسيبويه يقول في الحرف المكرر ما نصه: «ومنها المكرر هو حرف شديد، يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام، فتجافى للصوت كرخوة، ولم يكرر لم يجر الصوت فيه هو الراء»[١٣٥]، ويوضّح هذا ابن جني أيضاً في قوله: «ومنها المكرر وهو الراء، وذلك أنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير؛ ولذلك احتسب الإمالة بحرفين»[١٣٦]، ويقصد القدامى بالتكرار، تعثر طرف اللسان فيه عند الوقف، ويعدّ ابن جني من أهم من درسوا مصطلح (التكرار) بكل دقة وتفصيل، وأيّده في ذلك كل من تبعه ونلفي ابن يعيش في (شرحه للمفصل) يعيد قوله: «والتكرار صفة الرّاء، وذلك إذا وقفت عليه، رأيت اللسان يتعثر بما فيه من التكرير»[١٣٧]، ونجد نفس الطرح عند الزجاجي حين يقول في التكرار: «والحرف المكرر الرّاء؛ لأن فيه تكراراً»[١٣٨]. لقد حدّد سيبويه بكل دقة مفهوم صفة التكرير، وسار على نهجه كل من أتى من بعده، خاصة ابن جني، بل لم يزيدوا واكتفوا بنفس مصطلحات سيبويه، أمّا شيوع مصطلح (التكرار) عند المحدثين من علماء الأصوات، فتوافقوا على أن صفة (التكرار) خاصّة بحرف الراء، كما نجدهم اختلفوا في تعاريفهم، وتحديدهم لهذا المصطلح؛ وهذا مردّه إلى اختلاف المناهل والمشارب التي يعتمدون عليها في أبحاثهم الصوتية، ولكي نوضح هذا، أشرنا إلى أهم هذه الآراء والتعاريف، وذلك من خلال مؤلفاتهم ومباحثهم اللغوية.

فتمام حسان يأتي بمصطلح مرادف لـ(الصوت المكرر) وهو (الاستمرار) حيث يقول: «الأصوات

المستمرة وهو الرّاء، وينطق به بترك اللسان مسترخياً في طريق الهواء الخارج من الرئتين، فيرفرف اللسان، ويضرب طرفه في اللثة ضربات مكررة، وهذا معنى التكرار في صفته»[١٢٩].

أمّا إبراهيم أنيس فيقول في هذا الصدد: «الرّاء صوت مكرر؛ لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا، يتكرر في النطق بها كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليّناً يسيراً مرتين أو ثلاثاً لتكون الرّاء العربية»[١٣٠]، ويراد بالتكرير ملاحظة الضربات المتلاحقة التي تصحب نطق الرّاء[١٣١]، ومن هذه التعاريف الكثيرة، يبدو لنا أن المحدثين عرّفوا المكرر بنفس تعريف سيبويه، حيث إنهم يرون أن النطق بالرّاء، يتمثل في عدة اهتزازات وارتعاشات في طرف اللسان، هذا ما يجعلنا نخلص بأنهم (المحدثين) لم يضيفوا شيئاً ذا أهمية كبيرة إلى ما توصّل إليه سيبويه ومن تبعه في تحديد مفهومي (الانحراف والتكرار)، بل اكتفوا بنفس المسميات التي استعملها سيبويه.

٧ – الهاوي:

مصطلح (الهاوي) هو مصطلح تراثي أصيل، ورد في أقدم كتب التراث، وهذا ما نجده عند الخليل، عند حديثه عن حروف العربية في مؤلفه (العين)، حيث أطلق مصطلح (الهاوي) على الصوت الذي لم يكن له حيز ينسب إليه إلا الجوف، وقد سماه (بالجوفي)؛ لخروجه من الجوف وعدم وقوعه في مدرجة من مدارج اللسان أو الحلق أو اللهاة، وقد عدّ الخليل الأصوات الهوائية وهي (الهمزة والواو والياء والألف) فيقول في هذا الشأن ما نصّه: «في العربية تسعة وعشرون حرفاً، منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً أحيازاً و مدارج، وأربعة أحرف جوف، وهي الواو والياء والألف اللينة والهمزة، وسميت جوفاً؛ لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من اللهاة، وإنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب إليه الجوف، وكان يقول كثيراً الألف اللينة والواو والياء هوائية، أي: أنها في الهواء»[١٣٢].

أمّا سيبويه فردّ صفة (الهاوي) إلى الألف، هذا ما نتبينه من قوله: «ومنها الهاوي وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك وهي الألف، وهذه الثلاثة أخفى الحروف؛ لاتساع مخرجها وأخفاهن وأوسعهن مخرجاً: الألف، ثم الياء، ثم الواو»[١٣٣]، وهذا ما نجده في شرح الشافية، حيث يقول ابن الحاجب: «لأنه في الحقيقة راجع إلى الصوت الهاوي الذي بعد الفتحة، وهذا وإن شاركه الواو والياء فيه، إلا أنه يفرقهما من جهة اتساع هواء الألف؛ لأنه صوت بعد الفتحة، فيكون الفم فيه مفتوحاً بخلاف الضمة والكسرة فإن ذلك لا يكون عنهما، فذلك اتسع هواء صوت الألف أكثر منه في الواو والياء»، فهو بهذا يعيد نفس كلام الخليل وسيبويه في هذا الموضع.

أمّا عند المحدثين فسريان هذا المصطلح (الهاوي) ملحوظ، حيث يعرّفه (جان كانتينيو) بقوله: «الهاوي، أي: الذي فيه هواء، وهو نعت ينعت به ألف الجرس، أي: الألف الذي يحدث صوتاً للمقابلة، بينه وبين الألف إذا كان عماد الهمزة»، وقد سمى العرب الألف هاوياً؛ لكونه أعلى مراتب الانطلاق في أصوات اللين.

٨ – الغنّة:

مصطلح (الغنّة) هي صفة خاصة بحرف الميم، والنون اللتين هما من المخرج الأنفي أو الخيشوم المحوّل إلى مجرى النّفس بعد انسداد فتحة الفم، ومن المتكلمين من هو أغنّ خالص والمؤنثة غنّاء؛ وهذا لإخراجه الأصوات كلها من خيشومه، وهي عند سيبويه أيضاً خاصّة بحرف الميم والنون، حيث يقول في هذا الشأن: «إلاّ أنّ النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم، فتصير فيها غنّة»، كما يوضح هذا أيضاً في موضع آخر عند حديثه عن الشديد، فيقول: «ومنها حرف شديد، يجري معه الصوت؛ لأن ذلك الصوت غنّة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك واللسان لازم لموضع الحرف؛ لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصّوت،

وهو النون وكذلك الميم».

وأمّا ابن جني فيعني بالغنّة: «هي خروج صوت الحرف من الخيشوم وحروفه الميم والنون؛ لأنه قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم، فتصير فيهما غنّة»، أمّا عند المحدثين فمصطلح (الغنّة) خاص بالميم والنون، ونظيره بالمصطلح الأجنبي (nasal)، ويعرّفه محمود السعران في قوله: «تتكون الصوامت الغنّاء بأن ينحبس الهواء حبساً تامًّا في موضع الفم، ولكن يخفض الحنك اللين ليتمكن الهواء من النفاذ عن طريق الأنف، ومن أمثال الصوامت الغنّاء الميم والنون».

لقد تحدّث سيبويه عن صفات الأصّوات عامّها وخاصّها، وتميز منهجه في دراسته للأصوات اللغوية منهجاً علميًّا دقيقاً بالرغم من الفترة التي عاش فيها، فهي تعد مرحلة مبكرة جدًّا من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، هذا إن دل على شيء إنما يدل على عبقرية هذا العالم الجليل الذي خدم اللغة العربية وصنّف مباحثها. والمتأمّل يلاحظ أن التّابعين له والمحدثين قد أعادوا، وفي بعض الأحيان لم يضيفوا شيئاً على كلام سيبويه، بل إن صحّ القول اجترّوا كلامه وأفكاره، بل أعادوا نفس مصطلحاته.

فسيبويه حدّد مفهوم (الجهر والهمس) دون علمه بوجود الأوتار الصوتية، وتحدث عن مفهوم (الشدة والرخاوة)، ومفهوم (التكرير)، و (الانحراف)، وغيرها من الظواهر الصوتية التي أبدع في وصفها وتسمية مدلولاتها.

الحواشي:

(١) جان كانتينيو: دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، د.ط (تونس: نشريات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بالجامعة التونسية، ١٩٦٦م)، ص١٨.

(٢) عبد الغفار حامد هلال: أصوات اللغة العربية، ط٣ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٦م)، ص٣٨.

(٣) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي الملقب سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٤٣٣/٤.

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

(٥) نفسه، الصفحة نفسها.

(٦) نفسه، الصفحة نفسها.

(٧) نفسه، الصفحة نفسها.

(٨) نفسه، الصفحة نفسها.

(٩) نفسه، ٤٣٤/٤.

(١٠) محمد رشاد الحمزاوي: المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٧م)، ص٤٦.

(١١) دروس في علم أصوات العربية، ص١٨.

(١٢) محمد بن يزيد المبرد: المقتضب، تحقيق عبد الخالق عظيمة، د.ط (بيروت: عالم الكتب، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ١٩٢/١.

(١٣) أبو الفتح عثمان بن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ط١ (القاهرة: مطبعة الباجي الحلبي، ١٩٥٤م)، ٩/١.

(١٤) ينظر: خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، سلسلة الموسوعة الصغيرة (١٢٤)، د.ط (بغداد: منشورات دار الجاحظ للنشر، ١٩٨٣م)، ص٢٣.

(١٥) السابق، الصفحة نفسها.

(١٦) نفسه، الصفحة نفسها.

(١٧) نفسه، ص٢٤.

(١٨) تمام حسان: مناهج البحث في اللغة (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٦م)، ص٦٤.

(١٩) ينظر: أصوات اللغة العربية، ص١٢٢.

(٢٠) نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ط١ (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٠م)، ص١٠٣.

(٢١) الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تحقيق عبد الله الدرويش (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٦م)، ٦٤/١.

(٢٢) السابق، ٦٤/١.

(٢٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٤) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٥) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٦) الكتاب، ٤٣٣/٤.

(٢٧) السابق، الصفحة نفسها.

(٢٨) محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨م)، ص٤٩.

(٢٩) السابق، الصفحة نفسها.

(٣٠) الكتاب، ٤/٤٣٣.
(٣١) مدخل إلى علم اللغة، ص٤٩.
(٣٢) الكتاب، ٤/٤٣٣.
(٣٣) سر صناعة الإعراب، ١/٥٢.
(٣٤) السابق، ١/٨.
(٣٥) عبدالله بن جعفر ابن درستويه: تصحيح الفصيح، تحقيق عبد الله جبور، ط١ (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٥م) ١/١٠٨.
(٣٦) في البحث الصوتي عند العرب، ص٢٥.
(٣٧) ينظر: محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تصحيح محمد الضباع (بيروت: المطبعة التجارية الكبرى، د.ت)، ١/١٩٨.
(٣٨) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب، ص٢٥.
(٣٩) الكتاب، ٤/٤٣٣ – ٤٣٥.
(٤٠) ينظر: السابق، ٤/٤٣٣ – ٤٣٤.
(٤١) مدخل إلى علم اللغة، ص٤٩.
(٤٢) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب، ص٢٦.
(٤٣) الكتاب، ٤/٤٣١.
(٤٤) السابق، ٤/٤٣٤.
(٤٥) سر صناعة الإعراب، ١/٦٩.
(٤٦) أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش: شرح المفصل (بيروت: عالم الكتب، بغداد: مكتبة المتنبي، د.ت)، ١٠/١٢٨.
(٤٧) النشر في القراءات العشر، ١/٢٠٢.
(٤٨) تمام حسان: العربية معناها ومبناها، ط٣ (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٨م)، ص٦١.
(٤٩) السابق، ص٦١.
(٥٠) الكتاب، ٤/٤٣٤.
(٥١) العربية معناها ومبناها، ص٦١.
(٥٢) سر صناعة الإعراب، ص٦٩.
(٥٣) الكتاب، ٤/٤٣٤.
(٥٤) أصوات اللغة العربية، ص١٤٠.
(٥٥) السابق، الصفحة نفسها.
(٥٦) حسام سعيد النعيمي: الدراسة اللهجية والصوتية عند ابن جني، ط١ (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية – دار الرشيد، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٠م)، ص٣١٣.
(٥٧) انظر: العربية معناها ومبناها، ص٦٢.
(٥٨) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب، ص٤٥.
(٥٩) الكتاب، ٤/٤٣٤.
(٦٠) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، د.ط (القاهرة: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر، د.ت)، ص١٢٦.
(٦١) السابق، ص١٢٧.
(٦٢) الكتاب، ٤/٤٣٤ – ٤٣٥.
(٦٣) الأصوات اللغوية، ص١٢٨.
(٦٤) رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي: شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق إميل يعقوب وجماعة من الأساتذة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م)، ٣/٦٠.
(٦٥) الأصوات اللغوية، ص٢٤.
(٦٦) الكتاب، ٤/٤٣٥.
(٦٧) السابق، ٤/١٣٥، وانظر: كمال بشر، علم الأصوات (القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠م)، ص١٠٣.
(٦٨) رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٢م)، ص٣٣.
(٦٩) انظر: الأصوات اللغوية، ص٢٣، وعلم الأصوات، ص١٠٣.
(٧٠) الأصوات اللغوية، ص٢٣.
(٧١) السابق، الصفحة نفسها.
(٧٢) جوزيف فندريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م)، ص٤٨.
(٧٣) المدخل إلى علم اللغة، ص٣٤.
(٧٤) أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، ط٢ (الإمارات العربية المتحدة: كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص٨٦.
(٧٥) سر صناعة الإعراب، ١/٧٦.
(٧٦) السابق، الصفحة نفسها.
(٧٧) جارالله الزمخشري: المفصل، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٢)، ص١٩.
(٧٨) شرح المفصل، ١٠/١٢٩.
(٧٩) شرح الشافية، ٣/٢٦٢.
(٨٠) النشر في القراءات العشر، ص٢٠٢ – ٢٠٣، وانظر: مباحث في اللسانيات، ص٨٤.
(٨١) عبد الواحد وافي: فقه اللغة، ط٦ (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٦٨م)، ص١٦٢.

(٨٢) سر صناعة الإعراب، ٧٢/١.
(٨٣) شرح الشافية، ٢٦٢/٣.
(٨٤) الكتاب، ٢٢٥/٢.
(٨٥) الدراسة اللهجية والصوتية عند ابن جني، ص٣١٩.
(٨٦) الزوبير دراقي: محاضرات في فقه اللغة، ص٦٩، وانظر: مباحث في اللسانيات، ص ٨٨ – ٨٩.
(٨٧) علم الأصوات، ص٣٩٤.
(٨٨) مدخل على علم اللغة، ص٥٧ – ٥٨.
(٨٩) انظر: علم الأصوات، ص٣٩٨.
(٩٠) الكتاب، ٤٣٦/٤.
(٩١) علم الأصوات، ص٣٩٨.
(٩٢) أبو محمد بن الحسن بن دريد بن دريد: جمهرة اللغة، د.ط (بغداد: مكتبة المتنبي، د.)، ٧/١.
(٩٣) أصوات اللغة العربية، ص١٤٦.
(٩٤) العين، ٥٧/١.
(٩٥) أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني: لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق عامر السيد عثمان وعبدالصبور شاهين، ط١ (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ١٩٣/١.
(٩٦) سر صناعة الإعراب، ٧٤/١ –٧٥.
(٩٧) العين، ٥٨/١.
(٩٨) سر صناعة الإعراب، ٧٨/١.
(٩٩) ينظر: السابق، ٧٨/١.
(١٠٠) الأصوات اللغوية، ص١١٠.
(١٠١) المصطلحات اللغوية الحديثة، ص٩٧.
(١٠٢) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية د.ط (بيروت: دار الفكر العربي، د.ت)، ص٢٤٢، وانظر: الأصوات اللغوية، ص١٠٢.
(١٠٣) المصطلحات اللغوية الحديثة، ص١٠٦.
(١٠٤) جمهرة اللغة، ٥٤/١.
(١٠٥) النشر في القراءات العشر، ٢٠٥/١، وانظر: مباحث في اللسانيات، ص٨٥.
(١٠٦) محاضرات في فقه اللغة، ص٧٠.
(١٠٧) الكتاب، ٤٣٣/٤.
(١٠٨) شرح المفصل، ١٣٠/١٠، وينظر: الكتاب، ٤٣٣/٤.
(١٠٩) المصطلحات اللغوية الحديثة، ص١٦١.
(١١٠) محاضرات في فقه اللغة، ص٦٩، وانظر: مباحث في اللسانيات، ص٨٥.
(١١١) لطائف الإشارات، ١٩٩/١– ٢٠٠.
(١١٢) الكتاب، ١٧٤/٤.
(١١٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة (قلق).
(١١٤) الكتاب، ٤٣٥/٤.
(١١٥) سر صناعة الإعراب، ٧٧/١.
(١١٦) في البحث الصوتي عند العرب، ص٦٠.
(١١٧) دروس في علم أصوات العربية، ص٣٨.
(١١٨) الكتاب، ٤٣٥/٤.
(١١٩) سر صناعة الإعراب، ٧٧/١.
(١٢٠) شرح المفصل، ١٣٠/١٠.
(١٢١) أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: الجمل، اعتنى به وشرح أبياته الشيخ محمد بن أبي شنب، ط٢ (دمشق: ١٩٥٧م)، ص٣٧٨.
(١٢٢) مناهج البحث في اللغة، ص١٣٢.
(١٢٣) الأصوات اللغوية، ص٦٧.
(١٢٤) في البحث الصوتي عند العرب، ص٦٠.
(١٢٥) العين، ٥٧/١.
(١٢٦) الكتاب، ٤٣٥/٤ – ٤٣٦.
(١٢٧) شرح شافية ابن الحاجب، ٢٥٨/٢.
(١٢٨) دروس في علم أصوات العربية، ص٣٨.
(١٢٩) الكتاب، ٤٣٤/٤.
(١٣٠) السابق، ٤٣٥/٤.
(١٣١) سر صناعة الإعراب، ٧٥/١، وانظر: أصوات اللغة العربية، ص١٤٨.
(١٣٢) المصطلحات اللغوية الحديثة، ص٢٥٠.
(١٣٣) محمود السعران: علم اللغة، د.ط (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، ص١٨٤.